(١)

خيرية الأمة وخيرية نبيها
وكيف نحقق خيرية الأمة الآن ؟

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم :{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد :

فلقد كرم الله (عز وجل) الأمة المحمدية ، وبيّن فضلها ومكانتها ، وخيريتها بين الأمم ؛ وهذه الخيرية أمانة ومسئولية قبل أن تكون تشريفًا وتكريمًا ، حيث يقول الحق سبحانه : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): {أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ}.

ولا شك أن الأمة الإسلامية استمدت خيريتها من خيرية نبيها (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهو رسول الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو من قرن الله (عز وجل) ذكرَه بذكرِه في كل وقت وحين ، وهو من جمع الله له النبيين فآمنوا به ، وصلوا خلفه أجمعين ، وهو من تكاملت رسالته مع الرسالات السابقة ، حيث يقول سبحانه : {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} ، فهو (صلى الله عليه وسلم) حظنا من الأنبياء ، ونحن حظه من الأمم ، فما أسعدنا بشرف الانتماء إليه (صلى الله عليه وسلم) ، ولله در القائل:

ومما زادني شرفًا وتيهًا ... وكدتُ بأخمصي أَطأُ الثريَّا

دخولِي تحتَ قَولكَ يَا عبادِي   وأن صيَّرتَ أحمدَ لِي نبيّا

إن الحديث عن خيرية الأمة المحمدية ، وخيرية نبيها (صلى الله عليه وسلم) ليس حديثًا بدافع التفاخر أو التعالي أو العنصرية ، بل هو حديث من منطلق تحمل الأمانة ، وأداء الرسالة ، والشعور بالمسئولية ؛ لأن الخيرية التي وصف الله (عز وجل) بها الأمة المحمدية ليست خيرية مطلقة دون ضوابط أو علامات ، فقد جعل الله (عز وجل) لهذه الخيرية مقومات إذا أخذت بها الأمة ، وقامت بواجبها نحو أدائها تحققت لها هذه الخيرية ، ومن هذه المقومات تطبيق القيم والمبادئ والأخلاقيات التي جاءت بها الرسالة المحمدية بمفهوم شامل يحقق التسامح والتعايش السلمي بين البشر جميعا ، ويدفع المسلم لتحقيق الخير والنفع لكافة الخلق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ ، وَلَا يُؤْلَفُ ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) .

وحتى تحقق الأمة هذه الخيرية بمفهومها الشامل الذي يجعل الإنسان يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه ، يجب أن تدرك الأمة المعنى الحقيقي للوسطية التي تحمل أبناء الأمة على التوازن والاعتدال في كل الأمور ؛ من فهم مقاصد الدين ، وتحقيق مصالح المجتمع ونفع الناس ، والعمل من أجل إعمار الكون ، والفوز في الآخرة ، ويتأتى ذلك بالموازنة بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد وفق منهج الإسلام المستقيم البعيد عن الإفراط والتفريط ، لذا فقد حذَّر الإسلام من جميع ألوان التشدد والغلو ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) ، وكررها ثَلَاثًا ؛ لبيان خطورة ذلك ، وهذه الوسطية الصحيحة هي التي تؤهل الأمة لتكون جديرةً بالقيام بحق الشهادة على سائر الأمم كما أراد الله لها ، في قوله تعالى :

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} .

ومن مقومات تحقيق خيرية الأمة : **الأمر بالمعروف** ، **والنهي عن المنكر** ، حيث يقول سبحانه : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، وهذا يتطلب أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقوله تعالى: {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} لا يتم إلا بتحقيق المعروف في الوسيلة وهي أسلوب الدعوة، وفي الغاية وهو الفعل المأمور به ، فإذا تحول أسلوب الدعوة إلى تشدد فإن مَن فعل ذلك قد خالف الضوابط الشرعية التي أصَّلها الشرع الحنيف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ حيث يقول سبحانه : {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.

والمتدبر في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وهديه في دعوته ، ووصيته لأصحابه يجد أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم الناس ، ويأخذ بأيديهم ، ويبين لهم الحق برفق ولين ورحمة وذلك دون أن يقلل من شأنهم ، أو ينْتَقِصُ من أقدارهم ، والأدلة على ذلك من سيرته العطرة الشريفة أكثر من أن تحصى أو تعد، ومن ذلك:

ما كان من مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ، حيث قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : وَاثُكْلَ أُمَّاهُ ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمِتُونِي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، وَاللَّهِ مَا

نهرني وَلاَ ضَرَبَنِي ، وَلاَ شَتَمَنِي ، قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ).

وعَنْ أبي هُريرة (رضي الله عَنْهُ) قَال : بَينماَ نَحن جُلُوس عِنْدَ النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ جَاءه رَجلٌ ، فقَالَ : يَا رَسولَ الله ، هَلَكتُ ! فقال : (ما أهلَكَكَ؟) . قال: وَقَعْتُ على امْرَأْتِي ، وأنا صائمٌ . وفي رواية : "أصبتُ أهلي في رَمَضَانَ" ، فقالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : (هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تعتقها؟) قال : لا ، قال : (فهل تستطِيعُ أن تصوم شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعْين؟) قال : لا ، قال : (فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟) قال : لا ، قال : فَسَكَتَ النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فبينما نَحْنُ على ذلك إذْ أُتي النبي (صلى الله عليه وسلم) بِمكتل فيهِ تَمرٌ ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (أَيْنَ السَّائِلُ؟) ، قالَ : أنا ، قال : (خُذْ هذَا فتصَدَّق بِهِ) ، فقال : أعلى أفقَرَ منِّي يَا رَسُولَ اللّه؟ فَوَ الله مَا في المدينة أَهْلُ بَيْتٍ أفْقَر مِنْ أهل بَيْتي ! فَضَحِكَ النَّبي (صلى الله عليه وسلم) ، ثمَّ قَالَ : (أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ) .

كما أن قوله تعالى:{وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} متعلقٌ أولًا بكون المنكر الذي يُنهى عنه مُجمعًا على إنكاره ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ) ، أما المسائل التي يكون الخلاف فيها سائغًا ومعتبرًا بين أهل العلم فلا إنكار فيها ، فإن القاعدة الفقهية تقرر أنه: (لا ينكر المُخْتلف فيه، وإنما ينكر المُجمَع عليه).

على أننا نؤكد على أمرين في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأول: أن أشد المنكر ما كان يتعلق بأمر عامٍ ؛ لأن الأمور العامة تتعلق بحقوق الناس جميعًا ، وليس حقًّا لفِئَة معيَّنة ، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات ؛ لذا كان التعدي على المصالح العامة من أشد أنواع المنكر .

الثاني : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يكون منضبطًا بضوابط الشرع الحنيف ، مراعيًا اختصاص من أناط الله بهم ذلك من الحكام والعلماء والقضاة وغيرهم ، انطلاقًا من قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) ، فاليد للحاكم أو السلطان، واللسان للعلماء، والقلب لعامة الناس .

كما أن من أهم مقومات خيرية الأمة **تحقيق الإيمان بالله** (**عز وجل**) ، فالإيمانُ بالله (عز وجل) يهدِي صاحبه إلى كل خيرٍ ، قال تعالى: {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}، وبه يحيا الإنسان حياة طيبة ، مراقبًا لله (عز وجل) في كل حركاته وسكناته ، فلا يعتدي على حق غيره ، ولا يأخذ ما لا يحل له ، فيأمنه الناس ويألفونه، وهذا هو جوهر الإيمان وحقيقته ؛ لذا قال (صلى الله عليه وسلم): (الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ).

أما مَن انحرف بأخلاقه وتصرفاته عن حقيقة الإيمان فقد افتقد روح الإيمان ، وضيّع حقيقته ، وقد صرَّح النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفي كمال الإيمان عمن يؤذي جاره ، أو من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، قِيلَ : وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ

جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ)، فالإيمان الحقيقي هو الذي ينقي صدر صاحبه من الحقد والحسد والغل، والغدر والخيانة ، والفساد والإفساد ، وهو الذي يهذب أخلاق صاحبه ويظهر أثره على سلوكه وسائر تصرفاته وحركته في الكون والحياة ، وتعامله مع خلق الله أجمعين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن من أهم مقومات خيرية الأمة تحقيق الرحمة للعالمين ، وتحويلها إلى واقع نتعايش به في حياتنا ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} ، فنحن في حاجة ماسة إلى رحمة الطبيب بمرضاه ، والمعلم بطلابه ، والصانع بمعاونيه، ورب المال والأعمال بعماله ، والعالم بمتعلميه وسائليه ومستفتيه ، ورئيس العمل بمرءوسيه ، والوالد بولده ، والولد بوالديه، والأخ بأخيه ، والزميل بزميله، فما أحوجنا إلى التخلق بأخلاق الإسلام النبيلة ، وقيمه الراقية ، وأن نعمل على أرضية إنسانية مشتركة ، لا ينتزع الإنسان فيها من إنسانيته ، ولا تنتزع منه إنسانيته، حتى يشعر الإنسان بأخيه الإنسان ، بآماله ، وآلامه ، وأوجاعه ، ولنبدأ بأنفسنا أمة وأفرادًا مرددين : يا أمة الأخلاق عودي ، فسبيل الأخلاق هو سبيل الرشاد والتحضر والتقدم والرقي .

وختامًا ..لا شك أن الحديث عن خيرية الأمة وبيان فضلها ومكانتها يمنح أبناءها الثقة في مواجهة التحديات ، ويكون دافعًا لهم نحو التقدم والتحضر ، والجد والاجتهاد في العمل والإنتاج ، وإن من أوجب الواجبات على الأمة الآن أن تسعى جاهدة لتحقيق الخيرية التي ميّزها الله (عز وجل) بها ، وأن تتحمل مسئوليتها وتؤدي رسالتها على الوجه الأكمل ، ولنعلم أننا جميعًا موقوفون بين يدي الله (عز وجل) ، ومن علم أنه موقوف علم أنه مسئول ، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال أمام الله جوابًا ، فقد قال تعالى: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}.

ألا ما أحوجنا إلى أن نُجَسّد بأفعالنا وأحوالنا وأقوالنا خيرية التعاليم الإسلامية وسموها ورقيها ، لننال بذلك رضا الله (عز وجل) ، ونقدم للعالم شهادة عملية على أن الإسلام دين الحضارة والبناء والإنسانية بكل معانيها ، بعد ما تسللت الأفكار الهدامة إلى عقول بعض أبناء الأمة من خلال أناس زعموا أنهم يتحدثون باسم الإسلام ونبيه، والإسلام ونبيه منهم براء.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ أمتنا ووطنا ، وألهمنا رشدنا ، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا .